وإلا لفاجأتهم من أول تكذيب ، وهذا يبين أن الله تعالى يُمهل الخَلْق ليزداد فيهم أهل الهدى والإيمان ، ألاَ ترى أن المؤمنين برسول الله لم يأتُوا جميعاً مرة واحدة فى وقت واحد ، إنما على فترات زمنية واسعة .

لذلك قلنا : إن المسلمين الأوائل كانوا فى معاركهم مع الكفر يألمون إنْ فاتهم قَتْل واحد من رؤوس الكفر وقادته مثل عكرمة وعمرو وخالد وغيرهم ، ولو أطلعهم الله على الغيب لَعلموا أن الله تعالى نجَّاهم من أيديهم ليدخرهم فيما بَعْد لنُصْرة الإسلامَ ، وليكونوا قادة من قادته ، وسيوفاً من سيوفه المشْهَرة فى وجوه الكافرين .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [النمل] دليل على أن البعض منهم يشكر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

ولك أنْ تقول فى هذه الآية : إذا كان الله تعالى يعلم ما تُكنُّ صدورهم وما تخفيه ، فمن باب أَوْلَى يعلم ما يُعلنون ، فلماذا قال بعدها : ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [النمل] ؟

نقول : لأن ما فى الصدور غَيْب والله غَيْب ، وقد يقول قائل : ما دام أن الله غيْب فلا يعلم إلا الغيب . فنردّ عليه بأن الله تعالى يعلم الغيب ويعلم العلن .

﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ(١) فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ ﴾

(١) قال الحسن : الغائبة هنا القيامة . وقيل : ما غاب عنهم من عذاب السماء والأرض ، حكاه النقاش . وقال ابن شجرة : الغائبة هنا جميع ما أخفى الله تعالى عن خلقه وغيبه عنهم . وهذا عام . [ذكره القرطبى فى تفسيره (٥١١٥/٧)] .

معنى ﴿ غَائِبَةٍ .. (٧٥) ﴾ [النمل] يعنى : الشىء الغائب ، ولحقتْ به التـاء الدالة على المبالغـة ، كـما نقـول فى المبالغـة : راوٍ وراوية ، ونسَّاب ونسَّـابة ، وعالم وعلامـة ، كذلك غائب وغـائبة ، مبـالغة فى خفائها .

و (منْ) هنا يرى البعض أنها زائدة ، لكن كلمـة زائدة لا تليق بأسلوب القرآن الكريم وفصاحتـه ، ونُنزِّه كلام الله عن الحشو واللغو الذى لا معنى له ، والبعض تأدب مع القـرآن فقال (من) هنا صلة ، لكن صلة لأى شىء ؟

إذن : لابد أن لها مـعنى لكى نوضحـه نقول : إذا أردتَ أنْ تنفى وجود مـال معك تقول : مـا عندى مال ، وهذا يعنى أنه لا مـالَ معك يُعتَدّ به ، ولا يمنع أن يكون معك مثـلاً عدة قروش لا يقال لها مال ، فإن أردتَ نفـى المال على سبـيل تأصيل الـعموم فى النفـس تقول : ما عندى من مال ، يعنى بداية ممَّا يُقال له مال مهما صَغُر ، فمنْ هنا إذن ليـست زائدةً ولا صلةً ، إنمـا هى للغـاية وتأصـيل العـمـوم فى النفى .

فالمعنى ﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٧٥) ﴾ [النمل] أن الله تعالى يحـيط علمه أزلاً بكل شىء ، مـهمـا كان صغـيراً لا يُعتدُّ به ، واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩) ﴾ [الأنعام]

كما أن قدرته تعالـى لا تقف عند حد العلم إنما ويسجله ﴿ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٧٥) ﴾ [النمل] أى فى أمِّ الكتـاب الذى سجَّل الله فـيه كل أحداث الكون ، فإذا ما جاءتْ الأحداث نراها مُوافقة لما سجّله الله عنها

أزلاً ، فمثلاً لما ذكر الحق - تبارك وتعالى - وسائل النقل والمواصلات في زمن نزول القرآن قال : ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ⟨٨⟩﴾ [النحل]

فلولا تذييل الآية بقوله تعالى : ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ⟨٨⟩﴾ [النحل] لكان فيها مأخذ على القرآن ، وإلاَّ فأين السيارة والطائرة والصاروخ في وسائل المواصلات ؟

إذن : نستطيع الآن أنْ نُدخل كل الوسائل الحديثة تحت ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ⟨٨⟩﴾ [النحل]

وسبق أن قلنا : إن من عظمة الحق - سبحانه وتعالى - ألاَّ يُعلم بشيء لا اختيار للعبد فيه ، إنما بما له فيه اختيار ويفضحه باختياره ، كما حدث في مسألة تحويل القبلة : ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا .. ⟨١٤٢⟩﴾ [البقرة]

فيعلنها الله تعالى صراحة ، ويُسمِّيهم سفهاء ؛ لأنهم يعادون الله ويعادون رسول الله ، وبعد هذه الخصومة وهذا التجريح قالوا فعلاً ما حكاه القرآن عنهم .

ولم نَرَ منهم عاقلاً يتأمل هذه الآية ، ويقول : ما دام أن القرآن حكى عنا هذا فلن نقوله ، وفي هذه الحالة يجوز لهم أنْ يتهموا القرآن وينالوا من صدْقه ومن مكانة رسول الله ، لكن لم يحدث وقالوا فعلاً بعد نزول الآية : ﴿مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا .. ⟨١٤٢⟩﴾ [البقرة] يعني : تركوا التوجه إلى بيت المقدس وتوجهوا إلى مكة ، قالوه مع ما لهم من عقل واختيار .

وهذه المسألة حدثتْ أيضاً في شأن أبي لهب لما قال الله عنه :

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③﴾ [المسد]

لأنه قالها لرسول الله ﷺ لما جمعهم ليبلغهم دعوة الله ، فقال له : تباً لك ألهذا جمعتنا[1] . وأبو لهب عم رسول الله ، كحمزة والعباس ولم يكن رسول الله يدرى مستقبل عمه ، فلعله يؤمن كما آمن حمزة وصار أسد رسول الله ، وكما آمن العباس بن عبد المطلب .

فلما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا .. ①﴾ [المسد] كان بإمكانه أنْ يُكذِّبها وأن يؤمن فينطق بالشهادتين ولو نفاقاً ، فله على ذلك قدرة ، وله فيه اختيار ، لكنه لم يفعل .

إذن : من عظمة كلام الله ومن وجوه الإعجاز فيه أنْ يحكم حكماً على مختار كافر به ، وهو قرآن يُتْلَى علانيةً على رؤوس الأشهاد ، ومع ذلك لا يستطيع التصدِّى له ، ويبقى القرآن حُجَّة الله على كل كافر ومعاند .

ولما نتأمل قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ⑨﴾ [الحجر] نرى أن الحق سبحانه أنزل القرآن وتولَّى حفظه بنفسه - سبحانه وتعالى - ولم يُوكله إلى أحد ، مع أن فى القرآن أشياء وأحداثاً لم توجد بعد ، فكأن الله تعالى يحفظها على نفسه ويُسجِّلها

---

(١) عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ②١④﴾ [الشعراء] خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا (جبل بمكة) فاجتمعوا إليه . قال : أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مُصدقى ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذباً . قال : فإنى نذير لكم بين يدَىْ عذاب شديد . قال أبو لهب : تباً لك أما جمعتنا إلا لهذا ؟ فنزلت هذه السورة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ①﴾ [المسد] . أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/١٨١) وأحمد فى مسنده (١/٣٠٧) ومسلم فى صحيحه - كتاب الإيمان (حديث ٣٥٥) ، والبخارى فى صحيحه أيضاً (٨/٧٣٦ - فتح البارى) .

ويعلنها ، لماذا ؟ لأنها ستحدث لا محالة .

فالحق سبحانه لا يخشى واقع الأشياء ألاَّ تطاوعه ؛ لأنه مالكها ، ألاَ ترى أن الإنسان يحفظ (الكمبيالة) التى له ، ولا يهتم بالتى عليه ؟ أما ربُّنا عز وجل فيحفظ لنا الأشياء وهى عليه سبحانه وتعالى .

واقرأ إن شئت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] فالله يُسجِّلها على نفسه ويحفظها ؛ لأنه القادر على الإنفاذ ، وفعلاً هُزِم الجمع وولَّوْا الأدبار وصدق الله .

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) ﴾

فَرْق بين أن تخاطب خالىَ الذهن ، وأنْ تخاطب مَنْ لديه فكرة مُسْبقة ، فخالى الذهن يقبل منك ، أما صاحب الفكرة المسْبقة فيعارضك ، كذلك جاء من الكفار ومن أهل الكتاب من يعارض كتاب الله وينكر ما جاء به ، ومع أنهم أعداء الإسلام وكارهون له لكنْ إنْ سألتَهم عما أخبر به القرآن يقولون : نعم نعرف هذا من كتبنا ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة]

لذلك سيدنا عبد الله بن سلام[1] عندما نظر إلى رسول الله علم أنه الرسول الحق ، فمالتْ نفسه إلى الإسلام وقال : والله إنِّى لأعرف

(١) هو أبو يوسف عبد الله بن سلام بن الحارث من ذرية يوسف النبى عليه السلام ، كان من بنى قينقاع ، كان اسمه الحصين فسماه النبى ﷺ عبد الله ، أسلم أول ما قدم النبى ﷺ المدينة ، وقيل : تأخر إسلامه إلى سنة ثمان . كان أعلم بنى إسرائيل ومن سادتهم . توفى بالمدينة عام ٤٣ للهجرة . [الإصابة فى تمييز الصحابة ٤/٨١] .

محمداً كمعرفتي بابني ، ومعرفتي بمحمد أشد ، وصدق الله حين قال عنهم : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ .. (١٤٦) ﴾ [البقرة]

علم عبد الله أن الإسلام هو الطريق الذى يُوصِّله إلى الله والذى ينبغى لكل عاقل أنْ يتبعه ، فلما أراد أنْ يُسلم أحب أنْ يكسب الجولة بإعلان إسلامه وفضيحة المنافقين والكفار وأهل الكتاب ، فقال : يا رسول الله لقد استشرفَتْ نفسى للإسلام ، وأخاف إنْ أسلمتُ أن يذمَّنى اليهود ويفعلوا بى كذا وكذا ، فاسألهم عنِّى قبل أنْ أُسلم ، فسألهم رسول الله فقالوا : هو حَبْرنا وابن حَبْرنا ..

وكالوا له الثناء والمديح ، عندها قال عبد الله : أمَا وقد قلتم ما قلتم ، فأشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فقالوا : بل هو شرُّنا وابن شرِّنا . وكالوا له عبارات السب والشتم(١) .

ثم يصف الحق سبحانه القرآن فيقول :

﴿ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) ﴾

معنى ﴿ لَهُدًى .. (٧٧) ﴾ [النمل] أى : هداية دلالة وإرشاد ، وهذه للمؤمن وللكافر ﴿ وَرَحْمَةٌ (٧٧) ﴾ [النمل] للمؤمنين فقط . كما قال سبحانه : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. (٨٢) ﴾ [الإسراء] وفَرْق بين الشفاء والرحمة ؛ لأن العطف هنا يقتضى المغايرة . الشفاء : من الداء الذى جاء القرآن ليعالجه ، والرحمة ألاَّ يعاودك هذا الداء مرة أخرى .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٨/١٦٥ - فتح البارى) والبيهقى فى دلائل النبوة (٢/٥٢٧ - ٥٢٩) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه . وفى بعض ألفاظ الحديث أنهم قالوا أولاً : « ذاك سيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا » وفى لفظ آخر : « خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ الْعَزِيزُ .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [النمل] أى : الذى يقهر ولا يُقهر ، ويغلب ولا يُغْلب ، ويجير ولا يُجَار عليه ، وهو مع ذلك فى عزته ﴿ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النمل] فقد يكون عزيزاً لا يُغلب ، لكن لا علم عنده ، فالحق سبحانه عزيز عليم يضع العزة فى مكانها ، ويضع الذلة فى مكانها .

كما قال سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران]

وقد وقف العلماء عند قوله تعالى عن نفسه : ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران] فاجتهد بعضهم فقال : التقدير : بيدك الخير والشر ، وهذا التقدير يدل على عدم فهْم لمعنى الآية فما عند الله خير فى كل الأحوال ؛ لأن إيتاء الملْك لمن ينصف فى الرعية خير ، ونزع الملْك ممَّنْ يطغى به ويظلم خير أيضاً ؛ لأن الله سلب منه أداة الطغيان حتى لا يتمادى ، ففى كلٍّ خير .

وما دام من صفاته تعالى أنه عزيز عليم حكيم رحيم ذو فضل ، فاطمئن أيها المؤمن بالله ، وتوكل على الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾

والتوكل : أن تستضعف نفسك فى شىء تحاول أن تقضيه بقوة فلا تجدها عندك ، والتوكل الحق لا يكون إلا على الله الحى الذى لا يموت ، أما إن توكلْتَ على بشر مثلك فقد يُفاجِئه الموت قبل أنْ يقضى لك حاجتك .

وقال ﴿ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ [النمل] أى : أنك تتوكل على الله وأنت على الحق وعلى الطاعة له عز وجل ، لا على معصيته ، وما دُمْتَ تتوكل على الله وأنت على حال الطاعة فلا بُدَّ أن يكون نصيرك ومعينك .

ثم يُسلِّى الحق سبحانه رسوله ﷺ ويُعزيه كى لا يألم على مَنْ شردوا منه فلم يؤمنوا :

﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ(1) وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

والمعنى : لا تحزن يا محمد ، ولا تُهلك نفسك على هؤلاء الذين لم يؤمنوا من قومك ، فما عليك إلا البلاغ . والبلاغ كلام له أداة

---

(1) قال القرطبى فى تفسيره (٥١١٧/٧) : « قد عورضت هذه الآية بقصة بدر وبالسلام على القبور ، وبما روى فى ذلك من أن الأرواح تكون على شفير القبور فى أوقات ، وبأن الميت يسمع قرع النعال إذا انصرفوا عنه إلى غير ذلك . فلو لم يسمع الميت لم يُسلَّم عليه » ، وقال أيضاً فى التذكرة له (ص ١٦٤) : « لا تعارض بينهما لأنه جائز أن يكونوا يسمعون فى وقت ما أو فى حال ما ، فإن تخصيص العموم ممكن وصحيح إذا وجد المخصص ، وقد وجد هنا » . أو أن المراد نفى الإسماع النافع لهم .

استقبال فى السامع هى الأذن ، فإذا تعطلَتْ هذه الأداة لن يسمعوا ، وهؤلاء القوم تعطلَتْ عندهم أداة السمع ، فهم كالموتى والذين أصابهم الصمم ، فآيات الله الكونية كثيرة من حولهم ، لكن لا يروْن ولا يسمعون .

وليت الأمر يقف بهم عند حَدِّ الصمم ، إنما يُولُّون مدبرين من سماع الدعوة ، وهذه مبالغة منهم في الانصراف عن دعوة الحق ؛ لأنهم إنْ جلسوا فلن يسمعوا ، فما بالك إذا ولَّوْا مدبرين يجروْن بعيداً ، وكأن الواحد منهم يخاف أن يزول عنه الصمم وتلتقط أذنه نداء الله ، فيستميله النداء ، وعندها تكون مصيبته كبيرة ـ على حَدِّ زعمهم .

وهذا دليل على أنهم يعلمون أنه الحق ، وأنهم لو صَغَوْا إليه لاتبعوه ، ألم يقولوا : ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ .. (٢٦) ﴾ [فصلت]

ذلك لأن للقرآن جلالاً وجمالاً يأسرُ الألباب ؛ لذلك نَهَوْا عن سماعه ، ودَعَوْا إلى التشويش عليه ، حتى لا ينفذ إلى القلوب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٨١) ﴾

فرْق بين سماع قالة الحق أو قضية الصدق ، وأنت خالى الذِّهْن ، وبين أن تسمعها وأنت مشغول بنقيضها ، فلكى يُثمر السماع ينبغى أنْ تستقبل الدعوة بذهن خَالٍ ثم تبحث بعقلك الدعوةَ وما يناقضها ، فما انجذبتَ إليه واطمأنتْ إليه نفسك فأدخله .

وهذه يُسمُّونها ـ حتى فى الماديات ـ نظرية الحيز أى : أن الحيز

الواحد لا يتسع لشيئين في الوقت نفسه . وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك بالقارورة حين تملؤها بالماء لا بُدَّ أنْ يخرج منها الهواء أولاً على شكل فقاعات ؛ لأن الماء أكثفُ من الهواء .

ومعنى : ﴿ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٨١) ﴾ [النمل] ولقائل أن يقول : ما دام تُسمع مَنْ يؤمن بآياتنا ، فما فائدة السماع وهو مؤمن ؟ نقول : الآيات ثلاثة ، مترتبة بعضها على بعض ، فأولها : الآيات الكونية العقدية التي تشاهدها في الكون وتستدلّ بها على وجود إله خالق قادر فتسأل : مَنْ هذا الإله الخالق فيأتي دور الرسول الذي يُبيِّن لك ويحلّ لك هذا اللغز ، ولا بُدَّ له من آيات تدل على صدْقه في البلاغ عن الله هي المعجزة ، فإنْ غفلنا عن الآيات الكونية ذكرنا بها الرسول ، فقال : ومن آياته كذا وكذا .

فإذا آمنتَ بالآيات الكونية وبآيات المعجزات ، فعليك أنْ تؤمن بآيات الأحكام التي جاءتْ بها معجزة النبي ﷺ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) ﴾

كلمة ﴿ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ .. (٨٢) ﴾ [النمل] أي : سقط كأنه وبطبيعته يسقط لا يحتاج لمَنْ يُجبره على السقوط . والسقوط ﴿ عَلَيْهِمْ .. (٨٢) ﴾ [النمل] كما في قوله تعالى ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ .. (٢٦) ﴾ [النحل]

والوقوع هنا يدل على أنهم سيتعرّضون لشدائد ومتاعب ، وبتتبع هذه المادة (وقع) في القرآن نجد أنها جاءت كلها في الشدائد إلا

فى موضع واحد[١] هو قوله تعالى : ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ .. ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء]

وما داموا لم يسمعوا للآيات ، ولم يقبلوها ، ولم يلتفتوا إلى منهج الله وصمُّوا عنه آذانهم ، فلم يسمعوا كلام أمثالهم من البشر فسوف نُخرج لهم دابة تكلمهم .

﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ .. ﴿٨٢﴾﴾ [النمل] وانظر إلى هذه الإهانة وهذا التوبيخ : أنتم لم تسمعوا كلام أمثالكم من البشر ، ولم تفهموا مَنْ يخاطبكم بلغتكم ، فاسمعوا الآن من الأدنى ، وافهموا عنها ، وفسِّروا قولها .

لكن ماذا ستقول الدابة لهم ؟ وما نوع كلامها ؟ : ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [النمل] أى : بآياتنا السابقة لا يؤمنون ، وها أنا ذا أكلِّمهم ، وعلى الماهر فيهم أن يقول لى : كيف أكلمه .

وقد اختلف الناس فى هذه الدابة[٢] ، وفى شكلها وأوصافها ، وكيف

---

(١) وردت لفظة (وقع) فى القرآن ٧ مرات :

– ٥ منها ، بمعنى وقوع العذاب والشدة ونزولها : (الأعراف : ٧١ ، ١٣٤) ، (يونس ٥١) ، (النمل : ٨٢ ، ٨٥) .

– موضعان : أحدهما ، ما ذكره فضيلة الشيخ . (النساء ١٠٠) . والثانى ، قوله تعالى : ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [الأعراف] ، أى : ثبت الحق .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٥١١٩/٧) : « اختلف فى تعيين هذه الدابة وصفتها ومن أين تخرج اختلافاً كثيراً .

الأول : أنه فصيل ناقة صالح ، وهو أصحها والله أعلم ، لما ذكره أبو داود الطيالسى فى مسنده عن حذيفة .

الثانى : روى أنها دابة مزغبة شعراء ، ذات قوائم طولها ستون ذراعاً .

الثالث : يقال إنها الجساسة ، وهو قول عبد الله بن عمر .

الرابع : وروى عن ابن عمر أنها على خلقة الآدميين ، وهى فى السحاب وقوائمها فى الأرض .

الخامس : وروى أنها جمعت من خلق كل حيوان .

قال القرطبى : قد رفع الإشكال فى هذه الدابة ما ذكرناه من حديث حذيفة فليعتمد عليه » أى : أنها فصيل ناقة صالح .

يأتي القول من غير مألوف القول وهو الدابة ؟ لكن ما دام أن الله تعالى أخبر بها فهي حقٌ ، لا ينبغي معارضته ، وعلينا أن نأخذ وقوع ما حدَّث به القرآن قبل أن يكون دليلاً على صدْقه فيما يحدِّث به فيما يكون .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

الفوج : هم الجماعة والزمرة من الناس . وأول مَنْ يُجمع في هذا الموقف هم العتاة والجبابرة الذين تولَّوْا تكذيب آيات الله ، يحشرهم الله أولاً أمام العامة يتقدمونهم ويسبقونهم إلى النار ، كما قال سبحانه عن فرعون : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ .. ﴿٩٨﴾ ﴾ [هود]

فكما تقدَّمهم في الضلال في الدنيا يتقدمهم إلى النار في الآخرة ، وحين يرى الضالون إمامهم في الضلال يقدمهم ينقطع أملهم في النجاة ، فربما تعلَّقوا به في هذا الموقف ينتظرونه أنْ يُخلِّصهم ، لكن كيف وهو يسبقهم إلى هذا المصير ؟

ومعنى ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [النمل] قلنا في معنى ﴿ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [النمل] أي : يُمنعون ، والمراد يمنعون أن يسبق أولهم آخرهم[1] بحيث يدخلون جميعاً ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يجمع أولهم على آخرهم (ليشرفوا) سوياً في النار : التابع والمتبوع كلهم سواء في الذلة والمهانة ، فربما حاول أحد العتاة أو الجبابرة أن يسبق حتى لا يراه تابعوه ، فيفتضح أمره ، فيؤخره الله ليفضحه على رؤوس الأشهاد .

---

(١) هذا قول قتادة فيما نقله القرطبي في تفسيره (٥١٢٣/٧) وقول مجاهد فيما أورده السيوطي في الدر المنثور (٣٨٤/٦) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم . وهناك قول آخر : أي يساقون . قاله ابن زيد . وقال القرطبي : أي يُدفعون ويُساقون إلى موضع الحساب .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

فى سورة الأعراف يُورد الحق ـ تبارك وتعالى ـ مذكرة تفصيلية لهذا الموقف ، ولهذا الحوار الذى يدور فى عَرَصات القيامة ، فيقول تعالى :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأعراف]

﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

قوله ﴿ وَوَقَعَ .. ﴿٨٥﴾ ﴾ [النمل] أى : وجب لهم العذاب ﴿ بِمَا ظَلَمُوا .. ﴿٨٥﴾ ﴾ [النمل] وكأنه شىء محسوس يسقط على رؤوسهم ﴿ فَهُمْ لا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [النمل] فقد خرستْ ألسنتهم من هَوْل ما رأوْا ، فلا يجدون كلاماً ينطقون به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾